٢ الأمة في القرآن

بقلم : الشيخ مناع خليل القطان

الأمة الوسط :

٢ ـ وأثنى الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وامتن عليها بأن جعلها أمة وسطاً ، أي خياراً . أو عدولا ، فوسط الشيء ماله طرفان متساويا القدر ، فهي أمة القصد والاعتدال في العقيدة والشريعة والسلوك لا إفراط فيها ولا تفريط . والأمة التي جاء كتابها شهيداً على ما جاء به الأنبياء جميعاً ، فكانت جديرة بالعدالة ، وجديرة بأن تشهد على الأمم يوم القيامة بابلاغها رسالات الله ، وأن يكون رسولها محمد صلى الله عليه وسلم مزكياً لها شاهداً بصدقها وعدالتها . يقول تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (٢٣) .

روى البخاري والترمذي والنسائي عن أبي سعيد قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال : فذلك قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم» وأورد الامام أحمد في مسنده رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري ليست خاصة بنوح ، ولكنها تشمل سائر الأنبياء .

٣ ـ وأشار الله سبحانه الى ملة الاسلام ، وخاطب أمتنا بأن هذه الملة هي التي يجب أن نكون عليها ، لا ينحرف أحد عنها ، فهي ملة واحدة غير مختلفة تتجه في العبادة الى الواحد الخالق المعبود ، قال تعالى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (٢٤) .

٤ ـ وجاء هذا المعنى في آية «المؤمنون» بقوله تعالى : (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) (٢٥) .

وحمل بعض المفسرين الأمة في آيتي «الأنبياء ، والمؤمنون» على الدين الحق الذي بعث به الأنبياء في العصور المختلفة .

٥ ـ الأمة : الجماعة الكافرة المكذبة ، أي أمة الكفر والتكذيب والنحلة الباطلة ، وقد ورد إطلاق الأمة بهذا المعنى في عدة آيات :

١ ـ من المبادىء العامة في الاسلام سد الذرائع ، والذرائع : جمع ذريعة ، وعرفها القرافي في الفروق : بأنها هي الوسيلة الى الشيء ، وعرفها الشاطبي في الموافقات : بأنها التذرع بفعل جائز الى عمل غير جائز ، وقال فيها ابن العربي : كل عقد جائز في الظاهر يؤول أو يمكن أن يتوصل به الى محظور ، وهي معان متقاربة يشملها جميعاً أن يقال فيها : ما كان ظاهره الاباحة ويتوصل به الى فعل محظور ، والمراد بسد الذريعة الحيلولة دونها والمنع منها ، لأن ما يؤدي الى المفسدة ـ وإن كان مباحاً ـ يكون مفسدة . فيجب الامتناع عنه ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

والأصل في هذا ما جاء في القرآن من نهي المسلمين عن سب آلهة المشركين والنيل منها وذكر ما في ذلك من سفه ، لأن هذا يؤدي الى أن ينال المشركون من الله الحق ، ويحملهم على العدوان والظلم والجهالة انتصاراً لأصنامهم .

فان الله زين لكل أمة من الأمم الضالة الكافرة ما عليها من شر وسوء عمل تزييناً مثل تزيين سب الله لهؤلاء المشركين حباً لأصنامهم وانتصاراً لها ، ثم يكون رجوع الجميع الى الله يوم القيامة للحساب والجزاء ، يقول تعالى : (ولا تسبوا الذين

- **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية التى يجب على من تأهل له أن يؤديه خير أداء**
- **الظالمون المكذبون للرسل يتبع بعضهم بعضا ، اللاحق منهم يحذو حذو السابق ، والكل مآلهم إلى النار**

يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) (٢٦)

٢ ـ وتوعد الله أهل مكة الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفروا به بأن ينزل بهم العذاب في أجل معلوم عنده كما نزل بالأمم الكافرة المكذبة من قبل ، فقال تعالى : (ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (٢٧) .

٣ ـ ونظير هذا ما جاء في سورة «يونس» فان المشركين كانوا يستعجلون ما وعدوا به من العذاب استبعاداً له ، فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بأنه لا يملك لنفسه شيئاً ، ولا ضراً ولا نفعاً ، ولكن ما شاء الله له من ذلك فانه كائن ، فكيف يملك جلب الضر لهم ونزول العذاب بهم وهو لا يملك لنفسه شيئاً ؟ وأن يخبرهم بأن عذابهم له أجل مضروب عند الله في زمن محدود إذا جاء وقته أنجز لا محالة ، فليس هناك ما يدعو الى الاستعجال ، يقول تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (٢٨) .

٤ ـ ومن هذا القبيل ما في سورة «الحجر» فان كل قرية كذبت رسولها أهلكها الله حين حان أجلها الذى كتب فى اللوح وبين ، لا تسبقه ولا تتأخر عنه ، قال تعالى : (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) (٢٩) .

٥ ـ وفي هذا المعنى يقول تعالى في سورة «المؤمنون» (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) (٣٠) .

ذرية بعضها من بعض :

٦ ـ إن الظالمين المكذبين للرسل يتبع بعضهم بعضاً ، فاللاحق يحذو حذو السابق ، حتى اذا جاء يوم القيامة ، وسيق إنسهم وجنهم الى المصير المحتوم في جهنم وبئس القرار ، وجه الله اليهم أمره بدخول النار فتوافدوا عليها جميعاً أمماً تلعن كل أمة أختها فاذا تلاحقوا واجتمعوا ، سأل الأتباع ربهم مضاعفة العذاب للمتبوعين لأنهم أضلوهم سواء السبيل فيجيبهم الله بأن كلا من القادة والأتباع لهم عذاب مضاعف لأنهم كانوا ضالين مضلين . يقول تعالى :(قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) (٣١) .

٧ ـ أرسل الله رسله متواترين ، واحداً بعد واحد ، وفرداً بعد آخر الى أممهم في القرون المتتابعة ، وكلما جاء رسول أمته باهتوه وكذبوه ، فأهلك الله هؤلاء المكذبين من الأمم المتعاقبة بعضهم إثر بعض ، وجعلهم في التاريخ أخباراً يتحدث الناس بها سمراً وتعجباً ، ومثل هذا الهلاك يستحقه قوم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بالرسل ، قال تعالى : (ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً فجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون) (٣٢) .

٨ ـ يتخذ المشركون من دون الله أنداداً ، يزعمون أنهم شركاء لله في صور شتى من رؤوس الكفر ، فيحولون بينهم وبين الايمان بالرسول ، ويزينون لهم الكفر والضلال ، فاذا كان يوم القيامة أخرج الله من كل أمة بينهم شاهداً عليهم وحاجهم أن يأتوا ببرهان على ما كانوا عليه من الشرك ومخالفة رسولهم ، وهيهات لهم ذلك ، حينئذ يستفيقون ويستيقنون الحق ، وأنه لله ولرسوله ، وليس لهم ولا لرؤوس الكفر التي أغوتهم ويغيب عنهم ما كانوا يفترونه من الأكاذيب والأباطيل ، يقول تعالى : (ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) (٣٣) .

جحود واستكبار :

٩ ـ كان الكفار يجادلون بالباطل في آيات الله مع بيانها وظهور برهانها جحوداً منهم واستكباراً ويواجهون رسولنا صلى الله عليه وسلم بذلك . وقد أقبلوا على الدنيا ، وتقلبوا في البلاد طلباً للتجارة . كما كانت قريش في رحلتي الشتاء والصيف ، فضرب الله لتكذيبهم وعداوتهم وجدالهم بالباطل وما ادخر لهم من سوء العاقبة مثلا بما كان من نحو ذلك من الأمم من قوم نوح ومن بعدهم من جماعات الكفر في كل أمة كذبت وحرصت على التمكن من رسولها وأرادت تعذيبه أو قتله وجادلت بالباطل لترد الحق ، ولكن الله جازاهم على ذلك فأنزل بهم عقابه ، وأحل بساحتهم انتقامه ، وفي ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتثبيت للمؤمنين ، قال تعالى : (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب((٣٤) .

١٠ ـ يرتكب المكذبون ألواناً من الكفر ، وضروباً من الضلال ، وينتحلون الأعذار بما كان عليه آباؤهم من دين باطل يؤم ويقصد فهم يقتفون آثارهم . مثل ذلك قاله المكذبون المترفون الذين أبطرتهم النعمة لرسولنا صلى الله عليه وسلم كما قاله المكذبون المترفون لرسلهم من قبل . يقول تعالى : (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (٣٥) .

١١ ـ والله تعالى هو الرازق ، يعطي ويمنع، ولولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر . لأعطى الله الكافرين حظوظ الدنيا من مال ومتعة وزينة ، وجعل مساكنهم بما فيها من درج وسقف ، وما يستريحون عليه من سرر وأرائك وسائر ما يتخذ في البيوت ، من فضة وذهب ، فيكون ذلك فتنة تغري الناس بالكفر ، وإنما ذلك من متاع الدنيا الفانية الزائلة . أما نعم الحياة الآخرة فانها تكون خالصة للمتقين ، لا يشاركهم فيها أحد ، قال تعالى : (ولولا أن

(إنّ إبراهيمَ كانَ أُمّةً قانِتًا لِلّهِ حَنيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشرِكينَ)

النحل: ١٢٠

يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) (٣٦) .

أمة الدعوة :

٦ـ الأمة جماعة من العلماء العاملين والدعاة الى الدين . وقد ورد لفظ الأمة بهذا المعنى في آيات :

١ ـ إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ، وقد يتعين في بعض الحالات . ولا يقوم بهذا الواجب الكفائي إلا من تأهل له حتى يؤديه خير أداء ، فيكون على علم بالدعوة ، وبصر بأحوال الناس ، ودراية بأساليب البيان وطرائق الموعظة . كي تلين له القلوب ، وتأنس به النفوس ، والذين يلقى على عاتقهم هذا الأمر ، هم الذين اجتمعت فيهم أسبابه ، وتوافرت دواعيه ، وكانوا قدوة صالحة لما يدعون الناس اليه ، وفي هذا جاء قول الله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (٣٧).

٢ ـ لم يكن أهل الكتاب فى موقفهم من الاسلام على درجة سواء ، بل أمن خيارهم كعبد الله بن سلام وأترابه ، واستقاموا على دين الله ، يتلون القرآن في ساعات الليل ، يهجرون الكرى ، ويقبلون على الطاعة ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتسابقون في فعل الخيارت مبادرة اليها . قال تعالى : (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) (٣٨) .

٣ ـ ذكر الله اليهود ، وما ارتكبوه مع نبيهم موسى من ظلم وفسق وتجاوز لحد الله فى يوم السبت ، ثم ذكر منهم جماعة من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والزلول في موعظتهم ، حتى يئسوا من قبولهم ، ونصحوا آخرين آثروا الاستمرار في الموعظة إعذاراً الى الله وطمعاً فى تقواهم قال تعالى :(وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون) (٣٩) .

٤ ـ ومن فضل الله على عباده ، حتى يستقيم حالهم . وجود جماعة تهدي الى الحق ، وتقف عنده ، وتقيم العدل ، وهؤلاء هم العلماء والدعاة الى الدين ، يقول تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (٤٠) .

٥ ـ ونظير هذا ما جاء في جماعة من قوم موسى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (٤١) .

بين الأمة والجماعة :

٧ـ الأمة : الجماعة الكثيفة العدد ، ورد لفظ الأمة في القرآن بمعنى الجماعة التي يكثر عددها في ذاته ، وإن لم تشمل جميع أقرانها المعاصرين ، فكل عدد كثيف من الناس يقال فيه أمة .

١ ـ جاء هذا الاستعمال في قصة موسى عندما جاءه رجل يسعى فأخبره بأن الملأ من قوم فرعون يأتمرون به ، ويتشاورون فيه لقتله ، ونصحه أن يخرج من المدينة فخرج متوجهاً قصد مدين ـ قرية شعيب عليه السلام ـ حيث لم تكن تحت سلطان فرعون ، وسأل الله تعالى أن يهديه الطريق الأقوم . فلما وصل مدين ورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاة الشاء ، فوجد عليه جماعة كثيرة من السقاة ، ووجد من دونهم امرأتين تطردان غنمهما كراهة المزاحمة على الماء حتى لا تؤذيا ، فرق لهما موسى ورحمهما ، قال تعالى :(ولماورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) (٤٢) .

٢ ـ ومن هذا القبيل ما جاء في حال أهل الكتاب ، من أن جماعة منهم أقتصرت في موقفها من الاسلام ولم تنابذه العداء ، وهؤلاء قلة في ذات أنفسهم إذا ما قيسوا بالكثرة الساحقة التي نصبت نفسها لعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاربة الاسلام ، رغم ما جاء في التوراة والانجيل من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر بالايمان به ، ولكنهم أعرضوا عما أنزل اليهم من ربهم وما جاء في كتبهم . يقول تعالى : (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) (٤٣) .

● يرتكب المكذبون ضروبا كثيرة من الضلال ، وينتحلون الأعذار لتسويغ تكذيبهم

● الأمة المسلمة أمة القصد والاعتدال فى كل شىء ، وهى الجديرة بالشهادة على الناس

٣ ـ تقوم الحياة على الوفاء بالالتزام فيما بين العبد وربه ، وفيما بينه وبين الناس ، وقد أمرنا الله بالوفاء بعهده ، ونهانا عن نقض الايمان التي نوثق بها عهودنا ، وقد جعلنا الله شاهداً ورقيباً إنه سبحانه يعلم ما يكون منا فيجازينا ، وضرب الله مثلا لآثار نقض العهد وما يحدثه من فساد بين الناس وتقطيع لعرى مودتهم بامرأة خرقاء تنقض غزلها بعد أن أحكمته فتجعله أنكاثاً . فيكون نقض الايمان فساد ، لا لشيء سوى الميل الى جماعة أكثر عدداً وأوفر مالا من جماعة أخرى أقل تنقض عهدها ، إنما يختبرنا الله بالجماعة الأربى لينظر أنتمسك بحبل الوفاء بعهده وما أكدنا من ايمان أما تغيرنا كثرة فريق فنجنح اليه ، وليجزينا يوم القيامة بهذا وغيره مما يقع فيه الاختلاف ، قال تعالى : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) (٤٤) .

الرجل الأمة :

٨-الأمة : الرجل الجامع لصفات الخير الذي يؤتم به . لقد كان ابراهيم عليه السلام والد الأنبياء ، وإمام الحنفاء ، والمعلم الذي يهتدى به ، قام بأمر الله وأطاعه ، ومال عن الشرك الى التوحيد ولم يشرك بعبادة ربه أحداً ، فهو جدير بأن يكون أمة وحده ، قال تعالى : (إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) (٤٥) .

الأمة : الحين والمدة

٩- الأمة الحين والمدة . وجاءت الأمة في القرآن بمعنى الحين والمدة . وكأن المدة الطويلة ، جماعة من الأوقات .

١ ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر الناس بالبعث بعد الموت للحساب والجزاء ، ويتوعد المكذبين بالعذاب يوم القيامة ، ولكنهم كانوا يستعجلونه استهزاء . ويتساءلون ماذا يحبسه هذه المدة ؟ إنه حين يأتيهم لن يصرف عنهم ، ويومئذ يحيط بهم ما استهزؤوا به . يقول تعالى : (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) (٤٦) .

٢ ـ عبر يوسف عليه السلام الرؤيا لرجلين كانا معه في السجن ، فقال لمن ظن نجاته منهما اذكرني بما أنا عليه من خير عند ملك مصر وعزيزها ولكن الشيطان أنساه ذلك فلبث يوسف في السجن بضع سنين ، حتى رأى الملك رؤياه ، فتذكر الذي نجا يوسف وما عرفه عنه حين استفتى الملك رؤياه ، وأعضل على الملأ تأويلها . تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه ، وما طلبه من ذكره عند الملك ، وقال : أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا فابعثوني الى يوسف لأسأله ، قال تعالى : (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) (٤٧)

أمم أمثالكم :

١٠-الأمة : كل جنس من الحيوان غير بني آدم . فانه يكون أمة على حدة . وقد ورد هذا المعنى في القرآن جمعاً ولم يأت مفرداً ، حيث بين الله تعالى أن الدواب والطيور ما هي إلا أمم كأمم البشر ، وأنه سبحانه أثبت ما يكون بشأنها وشأن غيرها في اللوح المحفوظ ، ثم يكون حشرها اليه يوم القيامة لينصف بعضها من بعض . قال تعالى : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون) (٤٨) .

تلك هي المعاني التي وردت في القرآن الكريم للفظ «أمة» وقد جاء جمعها كذلك في عدة آيات بنفس هذه المعاني ، والله الموفق

الهوامش

(٢٣) البقرة : ١٤٣
(٢٤) الأنبياء : ٩٢
(٢٥) المؤمنون : ٥٢
(٢٦) الأنعام : ١٠٨
(٢٧) الأعراف : ٣٤
(٢٨) يونس : ٤٨ ـ ٤٩
(٢٩) الحجر : ٤ ـ ٥
(٣٠) المؤمنون : ٤٣
(٣١) الأعراف : ٣٨
(٣٢) المؤمنون : ٤٤
(٣٣) القصص : ٧٥
(٣٤) غافر : ٤ ـ ٥
(٣٥) الزخرف : ٢٢ ـ ٢٣
(٣٦) الزخرف : ٣٢ ـ ٣٥
(٣٧) آل عمران : ١٠٤
(٣٨) آل عمران : ١١٣ ـ ١١٤
(٣٩) الأعراف : ١٦٤
(٤٠) الأعراف : ١٨١
(٤١) الأعراف : ١٥٩
(٤٢) القصص : ٢٣
(٤٣) المائدة : ٦٦
(٤٤) النحل : ٩٢
(٤٥) النحل : ١٢٠
(٤٦) هود : ٨
(٤٧) يوسف : ٤٥
(٤٨) الأنعام : ٣٨